عدد 18- ديسمبر 2002، ص.ص. 49-62

عولمة العنف.
أي دور للنظام الإعلامي العالمي؟

ملخص

يتطرق هذا الموضوع إلى الدور الذي أداه النظام الإعلامي العالمي في نشر العنف على نطاق واسع، على غرار نشر مبادئ النظامين العالميين: السياسي والاقتصادي.

كما يكشف عن دور الولايات المتحدة الأمريكية في استغلال الإعلام كوسيلة لتكريس النموذج الثقافي الأمريكي على صعيد العالم المصنع وعلى مستوى البلدان السائر في طريق النمو وذلك منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

وما يعرف عن النموذج الثقافي الأمريكي هو تميزه بالعنف لكونه ينبني على سلوكيات عنيفة وأبرز المؤشرات الدالة على ذلك هي معدلات الجريمة المرتفعة في المجتمع الأمريكي ومستوى حيازة الأسلحة النارية في المنازل.

وإضافة إلى هذه الخصائص المميزة للنموذج الثقافي الأمريكي يضاف شكل آخر من أشكال العنف ويتمثل في ممارسة ومساندة إرهاب الدولة على مرأى من العالم، وليس هناك دليل أوضح مما يحدث اليوم على أرض فلسطين المحتلة.

أ/ حسين خريف
قسم الإعلام والاتصال
جامعة منتوري
قسنطينة، الجزائر

مازال مفهوم العولمة يجلب إهتمام الدارسين والمفكرين والمحللين في شتى المجالات وذلك منذ بداية الثمانينيات من القرن الماضي.

وبين متقبل للعولمة كحقيقة واقعة، ورافض لها، ومتخذ موقفا متحفظا، كانت هذه الحقيقة الصفة الأكثر تمييزا لنهاية الألفية الثانية على صعيد التفسير الفكري لمختلف التغييرات التي شهدها العالم، وعلى مستوى إعادة تشكل خارطة جديدة لجغرافية العالم الجيوستراتيجية.

والواضح أنه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية الحرب الباردة بين المعسكرين: الشرقي والغربي، وفي خضم التنافس الشديد على استقطاب دول العالم الثالث من طرف كل معسكر

Résumé

Ce sujet traite du rôle joué par le système mondial d'information dans la diffusion de la violence sur une large échelle, de la même façon qu'on été diffusé le nouvel ordre politique et le nouvel ordre économique mondial.

Ce sujet dévoile aussi le rôle du U.S.A. dans l'utilisation de l'information comme moyen pour

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر2002.

كانت الدول الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على بسط نفوذها العسكري والسياسي والاقتصادي والثقافي، ولم تكن مساحة النفوذ الإعلامي خارج اهتمام الغرب، لأن استراتيجية السيطرة كانت تقتضي عدم لفت الانتباه إلى سلاح الإعلام حتى يتسنى القيام بمهمة إحداث التغيير المنشود في المجالات الحيوية الأخرى.

asseoir la domination de leurs modèles culturels aussi bien sur le monde développé que sur les pays en voie de développement, et ce depuis la seconde guerre mondiale.

Nous savons que ce modèle est imprégné de violence et est construit sur des comportements violents dont les indicateurs les plus significatifs et les plus patents sont un taux de criminalité élevé et un niveau d'armement (possession d'armes au niveau des ménages) très élevé. A cette caractéristique interne du modèle culturel américain, s'y ajoute une autre forme de violence qui est la tendance des américains à pratiquer ou à soutenir le terrorisme d'état tel que nous le constatons en Palestine occupée.

ولم يكن الهدف من ذلك سوى ترسيخ نموذج موحد يمثل فكر وتصور الغرب لكيفية تشكيل خارطة عالم – ما بعد الحرب الباردة- سواء في حال السلم أو الحرب، لأن كلا الاحتمالين كان واردا ومدروسا بدقة وبكل الاحتمالات الممكنة في استراتيجية الغرب.

ومن أبرز صور المخطط الغربي، نجد السعي الحثيث لتهيمنه على مجتمعات العالم النامي وجعلها تسبح في فلكه كما نجد أيضا العمل على جعل النمط الغربي هو السيد في كل المجالات سواء تعلق الأمر بأبسط طرق وأساليب الحياة، كالأكل واللباس والتعاطي مع المشكلات اليومية أو بآليات التفكير والتصور وإدارة الشؤون السياسية والاقتصادية.

والمؤكد أن الوصول إلى تحقيق هذا الهدف، يغدو سهلا وفي متناول الغرب وقتما شاء إذا علمنا ضخامة الآلة الإعلامية والاتصالية المسخرة لخوض هذه المعركة، وإذا قدرنا أيضا قوة تأثير هذه الآلة على عقول الناس وأفكارهم واعتقاداتهم، وحتى معتقداتهم وعقائدهم الدينية التي يعد تغييرها بالاتجاه السلبي.

مؤشرا حقيقيا على قوة التأثير وفاعليته، الأمر الذي نلمسه في كثير من التجمعات، إن لم نقل المجتمعات الفقيرة.

ونتيجة لهذا العمل المخطط نجد الآن جميع التحاليل التي تتناول التغييرات الهيكلية في العالم تنطلق بالدرجة الأولى من تصور ارتباطات وعوامل ذات صلة وثيقة بالعولمة.

وانطلاقا مما سبق يطرح السؤال: ما الدور الذي أداه النظام الإعلامي العالمي في عولمة النظام السياسي والاقتصادي بالخصوص؟

وحيث أن التغيرات التي طرأت على مناحي الحياة في العالم كانت لها علاقة وطيدة بالعولمة فلم لا يكون العنف المستشري في أنحاء عديدة من العالم الثالث إحدى نتائج العولمة؟ بل لم لا يكون نتيجة منطقية لها بفعل انتشار قيم الثقافة الغربية وتغلغلها ضمن مجتمعات العالم ؟ علما أن العنف – كما سيتضح فيما بعد-عنصر مميز للثقافة الغربية عموما، والأمريكية خصوصا.

وبما أن هذه الثقافة أصبحت تصدر إلى مختلف أنحاء العالم في أشكال وألوان متعددة على طريقة تصدير المعلبات الغذائية والآلات الصناعية والإلكترونية، فلم لا

يكون العنف بأشكاله المعروفة حاليا إحدى صادرات الغرب إلى مجتمعات العالم، سيما المجتمعات التي تعاني ضعف التحصين الثقافي؟ وما علاقة النظام الإعلامي بظهور بؤر التوتر وأعمال العنف والإرهاب المادي والمعنوي في مناطق عديدة من العالم ؟

ثم هل تمكنت إمبراطورية الإعلام والاتصال أن تجعل العالم قرية كونية صغيرة على حد قول "مارشال ماكلوهان" لا معالم فيها للحدود الجغرافية والسياسية، وكل سمات الخصوصية ؟

كل هذه الأسئلة سنحاول تقديم إجابات مختصرة عنها لنتبين دور النظام الإعلامي العالمي في عولمة العنف على غرار عولمة النظم والقيم والسلوكيات.

1- مفهوم العولمة

اتخذ مفهوم العولمة لدى المفكرين والدارسين والمؤرخين أبعادا وتصورات متباينة من حيث وجهة النظر الإيديولوجية، ومراحل التطور التاريخي، وكذلك من حيث تجلياتها، وأثر تفاعل العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية والاتصالية، في إحداث التغييرات المتسارعة التي ميزت نهاية الألفية الثانية.

فبخصوص الاختلافات الإيديولوجية يرى البعض أن العولمة ليست سوى الوجه الآخر لما كان يسمى بـالإمبريالية العالمية فيما يرى آخرون أنها التجسيد الحقيقي لمبادئ وأهداف النظام الديموقراطي الرامي إلى تقريب جهات العالم والربط بين شعوبه بحيث تنمحي المسافات الجغرافية والاختلافات الثقافية وتتوحد أنماط الإنتاج والاستهلاك.

أما بشأن المنظور التاريخي للعولمة فيرى أصحابه أنها كلمة جديدة تلخص ظواهر قديمة ومن هؤلاء نجد جان شولت J. Sholt أستاذ العلاقات الدولية في جامعة ساسنكس الذي يشير إلى عدد من الأحداث الرئيسة التي مهدت الطريق للعولمة نذكر أهم ما ورد منها بخصوص مجال الاتصال فيما يلي:

عام 1866: أول خدمة دولية للتلغراف عبر المحيطات.

عام 1891 : أول نظام للاتصال التلفزيوني بين لندن وباريس .

عام 1920: أول إذاعة بالراديو من محطة K.D.K.A الأمريكية.

عام 1930: خطاب الملك جورج الخامس في افتتاح مؤتمر للبحرية البريطانية في لندن، الذي ربط بين 242 محطة تابعة للبحرية الإنجليزية عبر قارات العالم في آن.

عام 1957: إطلاق أول قمر صناعي إلى الفضاء الخارجي.

عام 1962: بدء أول اتصالات دولية بالأقمار الصناعية.

عام 1976: بدء أول بث مباشر بالأقمار الصناعية على الأطباق المقعرة.

عام 1977:- أول استخدام تجاري للكابلات المصنوعة من الأنسجة البصرية، والتي عملت على زيادة قدرة الاتصالات اللاسلكية.

إتمام ربط كامل من الأنسجة البصرية حول العالم، الأمر الذي سهل عملية استخدام الوسائط المتعددة والمحمولة وغيرها.

أما بشأن مفاهيم العولمة المرتبطة بالمجالات السياسية، والاقتصادية والثقافية، فيمكن إجمالها في "ما ورد في مقالة لمحمد عابد الجابري الذي نبه إلى تفرقة على درجة من الأهمية بين ما أسماه بـ: العالمية universalism التي تمثل وفقا لتصوره طموحا نحو الارتقاء بالخصوصية إلى مستوى عالمي ومن ثم فهي تفتح العالم على ما هو عالمي وكوني، وبين العولمة globalisation التي تمثل في نظره إرادة الهيمنة، وبالتالي فهي تعني القمع والإقصاء لكل ما هو خصوصي، وبينما اعتبر الأولى أي العالمية طموحا مشروعا لأنها تعني الانفتاح على الآخر ورغبة في الأخذ والعطاء اعتبر الثانية إرادة لاختراق الآخر وسلبه خصوصيته" (2).

وأيا تكن مقاصد العولمة، فهي لا تحقق أهدافها بمعزل عن التطور المذهل الذي عرفته وسائل الاتصال والإعلام التي ساهمت إلى أقصى حد في تعميق أثر ثورة المعلوماتية على دول العالم ومجتمعاتها.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه إزاء هذه المواقف هو: لماذا طغت العولمة بشكل كبير في هذا الوقت بالذات حيث يسجل تحول واسع وعميق على مختلف الأصعدة في العالم ؟ وما الأسباب التي جعلتها تمثل الشغل الشاغل للأطراف العاملة على نشرها، مثلما هي الحال بالنسبة للرافدين لها والمتحفظين عنها.

والجواب هو "أن ما جعل آثار العولمة تبرز في هذه المرحلة التاريخية التي يمر بها العالم هو تعمق آثار الثورة العلمية والثقافية من جانب، والتطورات الكبرى التي حدثت في عالم الاتصال من جانب آخر"(3).

وهذه الحقيقة أصبحت واقعا لا ينكره أحد، حيث أن تكنولوجيا المعلومات التي أفرزتها الثورة التقنية صار لها دور كبير في إحداث التغييرات العميقة في النظم، كما في السلوكيات والأفكار وبحكم قوة تأثير الاتصال والإعلام تأكد للمحللين بما لا يدع مجالا للشك أن "ثورة تقنية المعلومات، مع تقنية الاتصالات لنقل ومعالجة وتخزين المعلومات داخليا وخارجيا كان لها أثرها في الإنتاج والتسويق والتمويل والإدارة حيث أصبح الإنسان يشارك وهو في غرفة جلوسه في الأحداث العالمية بالصوت والصورة وكأنه حاضر" (4).

وفي سياق تأثيرات هذه الثورة وارتباطاتها الوثيقة بالتحديث والابتكار وانتشار وسائل الاتصال والمعلومات بشكل واسع، بما تحمله من نقل للقيم الثقافية، يرى البعض "أن العولمة تختص في مجال التحديث بالثقافة، وهي تهم علماء الاجتماع، إذ يتحدثون عن الثقافة العالمية ومفهومها، وفي ذلك يقول فيدر ستون (Featherston) أنه من الصعب الحديث عن ثقافة عالمية، لكنه يشير إلى أن هناك عمليات تحول نحو التكامل والتشابه من جهة، ونحو التشرذم والتفكك الثقافي من جهة أخرى. ومن جانب آخر يقول "أبادوري" Appaduri إن أصحاب نظرية تشابه الثقافات يتحدثون عن الأمركة والسلعنة أي سيطرة الحياة الاستهلاكية" (5) على مجتمعات العالم.

وما يؤيد وجهة نظر أصحاب هذه النظرية هي المخاوف التي أصبحت تظهرها بعض الدول مثل فرنسا وألمانيا واليابان، وكذلك المواقف الرافضة علانية، أو المقاومة للعولمة خوفا من سيادة النموذج الأمريكي بما يميزه من هيمنة وتسلط، والسعي إلى

احتواء العالم تحت المظلة الأمريكية. ومع ذلك يبدو جليا أن العالم يتجه نحو توحيد أنماط الحياة عن طريق استهلاك المنتوجات الموحدة (American way of life) عبر سوق جماهيرية بمعايير عالمية (6) يطبعها النمط الأمريكي بصفة خاصة.

وإذا كانت العولمة بمفهوم نشر القيم الاستهلاكية من أجل ترويج المنتجات السلعية، وإيجاد أسواق لها، لا تثير خلافا بين أمريكا وباقي الدول الغربية، لأنها تلتقي جميعا عند هدف واحد، فالأمر يغدو مخالفا لذلك عندما يتعلق بنشر العولمة على نطاق واسع وترسيخها في الأذهان بمفهوم الأمركة، وعندما يتأكد بالدلائل القاطعة تحول أمريكا إلى قوة مركزية مهيمنة (ميتروبول) وتصير في ذات الوقت باقي الدول، بما فيها الغربية، أطرافا محورية تدور في فلكها. فهذا يضع أمريكا في مواجهة منفردة ضد الرافدين لنموذجها في جهات عديدة من العالم كما من داخلها أيضا حيث توجد منظمات غير حكومية تدعو علانية إلى مقاومة العولمة بصورتها الحالية لأنها لا تمنح فرصا متكافئة لجميع الأفراد داخل أمريكا ذاتها، وهو ما يستنتج اليوم من خلال أحداث كثيرة تسجل على الصعيد العالمي، وما أصبحت تكشف عنه بكل وضوح النظرة الجيو اقتصادية للثقافة، حيث تبرز المخاوف الغربية من السير على طريق العولمة بهذه الآليات، ومن مكانة الزعامة العالمية التي افتكتها أمريكا لنفسها محققة بذلك الأمل الذي راود زعماءها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عندما قال روزفلت "الآن يجب أمركة العالم" وكان يعي ما يقول وما ينبغي عمله على جميع المستويات من أجل الوصول إلى تحقيق ذلك الحلم.

ومن الدلائل المؤكدة للدور الأمريكي البارز على الصعيد العالمي، يمكن الإشارة إلى التدخل بالقوة في جزيرة (بناما) وإلقاء القبض على رئيسها (مانويل نورييغا) الذي شق عصا الطاعة عليها ونقله إلى السجن بأمريكا، وكذلك تدخلها في الصومال تحت غطاء حقوق الإنسان أثناء تقاتل أبناء البلد الواحد، غير أن المؤسف هو أن مهمة الجنود الأمريكيين تحولت إلى ممارسة العنف والإرهاب ضد الصوماليين، والمطالبة برأ س عيد يد أحد زعماء الفصائل المتناحرة على السلطة قبل التراجع عن هذا الطلب والرحيل عن البلد المنكوب بالمجاعة.

وكذلك إقدام أمريكا على قصف ليبيا... وترأس جورج بوش (الأب) القوات الثلاثينية المشاركة في ذرع الصحراء أثناء حرب الخليج الثانية، مرورا بمواقفها المتخاذلة خلال ما حدث في أنحاء أخرى من العالم، مثل البوسنة والهرسك، والشيشان، وانتهاء بموقفها التاريخي من قضية الشرق الأوسط المعروف بالانحياز العلني للكيان الصهيوني، والداعم له سياسيا داخل مجلس الأمن عن طريق حق النقض واقتصاديا وعسكريا.

ولا أحد ينكر أن جميع تلك الأحداث تميز بالعنف في أجلى صوره وأشكاله، وفي أعلى درجاته وهي الإرهاب الدولي والجريمة المنظمة والاعتداء الصارخ على حقوق الإنسان.

وجميع التحولات الهيكلية الواسعة التي عرفها العالم منذ ما يقارب ثلاثة عقود، كانت نتيجة لاستراتيجية اتبعها الغرب مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، غير

أن نتائجها تأخرت عن الظهور، إذ ظلت مرتبطة بطبيعة الظروف التي كانت – طبعا – لصالح الغرب على حساب البلدان الضعيفة التي خضعت لقوة التغيير، إذ لم يكن بوسعها السير عكس اتجاه تيار العولمة الجارف نظرا لخطورة المجازفة، سيما بالنسبة للنظام السياسي الذي أصبح يجمع تحت مظلة الغرب جميع دول العالم، باستثناء الصين وكوبا. ومادام الأمر كذلك فإن أي تفسير يعطى لتلك الأحداث لا يخرج عن إطار العنف، لأن ما حدث من توجيه لمسار الأحداث لم يكن على الإطلاق بإرادة سلطات تلك الدول ولا كان استجابة لرغبات شعوبها.

2- مفهوم العنف

من حيث وجهة النظر المفهومية يبدو العنف كغيره من المفاهيم الأخرى صعب التحديد لأنه يوحي بأفكار متباينة ومعايير مختلفة، ومواقف متناقضة، ومع ذلك يمكن تقديم بعض التعاريف للعنف.

فقد عرف قاموس أكسفورد العنف بأنه: "فعل إرادي متعمد بقصد إلحاق الضرر أو التلف أو تخريب أشياء أو ممتلكات، أو منشآت خاصة، أو عامة، أهلية أو حكومية عن طريق استخدام القوة" (7).

وهذا التعريف وإن كان لا يذكر صراحة الإرهاب إلا أنه يتضمن الأعمال التي توصف به كالتعمد والقوة والتخريب، بينما يركز بشكل أساس على الآثار المادية والمعنوية (التلف وإلحاق الضرر) التي تخلفها أعمال العنف دون تحديد صفة وطبيعة الفاعل أو الفاعلين.

غير أن مفكرا عربيا هو نبيل رمزي يستثني من التعريف السابق الأعمال الإرهابية ويقدم لها تعريفا أخر يشير إليه صراحة بقوله: "أما الإرهاب فهو أحد أشكال العنف الموجه إيديولوجيا والذي ترتكبه تنظيمات غير رسمية عن طريق أفراد أو جماعات من المنتمين إليها بهدف تحقيق مآرب سياسية مرحلية أو نهائية" (8).

وموضع اختلافنا مع هذا التعريف هو ربط الأعمال الإرهابية -كأحد أشكال العنف- بتنظيمات غير رسمية وهو ما ينفي –حسب هذا التعريف- عن التنظيمات الرسمية احتمال قيامها بأعمال العنف أو يخرجها من إطار التنظيم الرسمي في حال ممارستها العنف، وفي كلتا الحالتين فإن هذا التعريف يظل قاصرا عندما يتعلق الأمر بإرهاب الدولة، كالإرهاب الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني والدعم الأمريكي لهذا الكيان الذي يعد بدوره إرهابا منظما، وكذلك عندما نتحدث عن أشكال العنف المجسدة في صور الاستغلال السياسي والاقتصادي والثقافي الذي تمارسه الدول الصناعية على البلدان النامية والذي يؤدي إلى سلب إرادتها وحريتها في اتخاذ القرار أيا كانت صفته.

وتبعا لذلك يبدو مفهوم العنف بحاجة إلى شمولية أكثر مما سبق، وهو ما تتفق عليه مختلف القواميس حين تتحدث عن العنف على أنه "قوة فظة، وحشية، واستعمال مفرط للسلطة... كما أن وسائل الإعلام الجماهيرية وإحصائيات العدالة، والمختصين بحقل السياسة الوطنية والعالمية يتحدثون عن الاعتداء والإجرام والحرب والتعذيب،

والإرهاب وأشكال الاضطهاد التي تتم بطرق خفية، ولكنها تكون أكثر إحداثا للأضرار كالاستغلال الاقتصادي" (9).

ووفقا لعناصر هذا التعريف يمكن إدراج جميع أشكال الاستغلال السياسي والاقتصادي والثقافي الممارسة من طرف دول الشمال المصنعة على دول الجنوب النامية في خانة العنف وتصبح بالتالي أطرافا متعمدة لإلحاق الضرر بشعوب الدول الفقيرة من خلال إخضاعها لهيمنتها وبسط سيطرتها عليها اقتصاديا وسياسيا في المقام الأول، قبل أن تتحقق التبعية الإعلامية بما ينتج عنها من تأثير فكري وثقافي قوي، وصولا للتحكم في مصائر شعوبها وهو الهدف المبتغى في النهاية من كل أشكال الاستغلال والاضطهاد والهيمنة.

ومن حيث إجرائية المفهوم نرى أن التعريف الأخير يصلح للتعبير عن العنف في مختلف أشكاله، ومن أي طرف كان، مع إضافة عنصر آخر يتصل بحقوق الإنسان، فعندما تمس هذه الحقوق بأي شكل ويلحق بالإنسان ضرر متعمد مادي أو معنوي، من طرف فرد، أو جماعة، أو تنظيم رسمي، أو غير رسمي، أو حتى من طرف دولة فهو يصنف في خانة العنف المتضمن الإرهاب، وكثيرا ما نجد مصطلح العنف والإرهاب يرتبط استعماله بتقييد الحريات والإقصاء ومصادرة الأفكار...

3- النموذج الثقافي الأمريكي والعنف

لاشك أن تمكن الثقافة الغربية من غزو الأفكار والعقول على نطاق واسع قد أصبح حقيقة يلحظها كل متأمل في واقع الإقبال المتزايد على استهلاك المنتجات الثقافية، والحاملة للثقافة بشكل ملفت للنظر، وأبرز ما في هذه الثقافة وأكثرها سيطرة: النموذج الأمريكي المتميز خاصة بالعنف... العنف داخل الأسرة والمدرسة،العنف في الشارع، العنف داخل المؤسسات...

وإذا كان التاريخ البشري يسجل للإنسان نزوعه إلى العنف في حالات الضعف كما في حالات القوة وأنه لا يوجد مجتمع بشري يخلو من ظاهرة العنف، فإن ذات التاريخ يحفظ للمجتمع الأمريكي سجلا حافلا بأعمال العنف في مختلف صوره وأشكاله وبأساليب مسايرة في تطورها لتطور التكنولوجيات الحديثة، حيث نجد أن أمريكا هي أكثر الدول معاناة من الجريمة بجميع أنواعها ، فبالإضافة إلى معاناتها من جرائم الإرهاب السياسي الذي سبق الحديث عنه، فهي تعاني أكثر من غيرها من شتى أشكال وألوان الجريمة التي كانت معدلاتها في عام 1981 على النحو التالي:

جريمة سرقة كل (4 ثوان)، جريمة سطو كل (8 ثوان) وجريمة سرقة سيارة كل (28 ثانية) واعتداء وهجوم مدمر كل (48 ثانية)، سرقة بالإكراه كل (58 ثانية) وجريمة اغتصاب بالقوة كل (8 دقائق) وجريمة قتل كل (23 دقيقة) (10). وكان منحى تطور الجريمة في المجتمع الأمريكي يتصاعد باستمرار وبوتيرة متسارعة حيث يتضاعف العدد كل أسبوع تقريبا.

وهذه الأرقام كافية للكشف عن الوجه الآخر لزعيمة العالم (أمريكا) وكيف أن الحياة في مجتمع بمثل هذه الخصوصية المرعبة يحتم على الفرد اللجوء إلى استعمال كل

الوسائل من أجل الدفاع عن النفس. لكن هذا المبرر الذي يضمنه القانون الأمريكي،غالبا ما يتحول إلى دافع للاعتداء على الآخرين وإلحاق الضرر بهم وبمصالحهم، مما يخلق جوا من اللاأمن داخل المجتمع ويشيع الرعب بين أفراده، ويجعل المرء لا يأمن على نفسه، كما على ماله وممتلكاته في كل الأحوال وفي كل الأمكنة. ولذلك فلا غرابة أن يشهر تلميذ مسدسا في وجه مدرسه، ولا عجب أن تطلق امرأة النار على زوجها لحسم موقف الخلاف بينهما، أو تهاجم عصابة مسلحة بنكا، أو محلا تجاريا للحصول على الأموال. لا غرابة في كل ذلك ما دام الإعلام هناك يلقن فنون السطو، وكيفيات رسم الخطط الدقيقة التي تكون نسبة الفشل فيها ضئيلة، للهجوم على البنوك والمحلات والمؤسسات وغيرها.

وحتى تتشكل لدينا صورة معبرة عن إمكانات الإعلام والاتصال المساهمة في تكوين ثقافة العنف لدى المواطن الأمريكي ينبغي أن نسوق الأرقام الدالة على امتلاك أمريكا ترسانة اتصالية وإعلامية ضخمة، إذ يوجد بها أكثر من 1700 جريدة يومية وآلاف من النشرات الأسبوعية، و9000 محطة إذاعية و1000 محطة تلفزيونية، و7 مراكز إنتاجية رئيسة، و2500 دار نشر للكتب، وأن معدل الوقت الذي يقضيه الأمريكيون في متابعة الإعلام هو3400 ساعة في السنة (11). وبديهي القول أن استهلاك إعلام العنف بهذا الحجم، أي بمعدل نحو تسع ساعات يوميا لكل فرد، كفيل بأن يخلق مجتمعا متشبعا بالعنف انطلاقا من أن أفراده يتربون في مناخ فكري واجتماعي قانونه الأوحد هو العنف، والعدل والحق فيه يكون إلى جانب الأقوى دائما، وليس الأصلح .

وما الأفلام الأمريكية التي تخرج بأعداد كبيرة سنويا من استيديوهات هوليود ومنها أفلام رعاة البقر (الكاوبوي) و(الويستيرن) إلا صناعة إعلامية وثقافية تحمل العلامة (صنع في أمريكا made in American) وهذه العلامة أصبحت معروفة بصفة مميزة هي القوة والعنف، اللذين تطورت أساليبهما تبعا لتطور تقنيات الإنتاج والاستهلاك، حيث أصبحت عمليات تحويل الأموال والنصب والاحتيال والسرقات تتم عن طريق تقنيات القرصنة المعلوماتية التي توفر لأصحابها إمكانية الحصول على معلومات وأسرار من داخل البيوت عن طريق الحاسب الشخصي المرتبط بشبكة الإنترنت.

ومما ساعد على انتشار وذيوع هذه الصفة، هو احتواء جميع المنتجات الثقافية، والحاملة للثقافة على رسائل ذات مضامين معبرة عن النموذج الأمريكي الذي بدأ تأثيره يتضاعف تماشيا مع تطور أساليب وتقنيات التأثير الهادف إلى تغيير الأفكار والاتجاهات، وذلك بخلق قنا عات منشودة انطلاقا من "عملية التأثير التي تتم بصورة غير مباشرة عن طريق البرامج والأفلام والمسلسلات وغيرها من الأشكال التي تجعل المتلقي يقارن بين حاله وحال الآخرين في المجتمعات الأخرى. أما الصورة المباشرة للتأثير في المستهلك فتتم أساسا عن طريق الإعلان الذي يحتل مساحة واسعة ضمن البرامج الإعلامية" (12).

وما ذكر الأرقام السابقة إلا دلالة قاطعة على قوة تأثير الإعلام الغربي على المستهلك العربي حيث تؤكد أغلب الدراسات التي تمت حول تأثير الإعلان في

المستهلك أن أكبر نسبة من الإعلانات عبر أقطار العالم العربي يرجع مصدرها إلى البلدان الغربية، وبالأخص أمريكا، وأن الإقبال على استهلاك الإعلانات الموزعة بمختلف الوسائل الإعلامية يترك أثرا عميقا في نفسية المتلقي تكشف عنه سلوكياته ومواقفه. ولم يتوقف الأمر عند حد الإعلان بل يتعداه إلي صناعة المجلة والكتاب والفيلم السينمائي والبرنامج التلفزيوني... وكلها وسائل حاملة للقيم الأمريكية ولها تأثيرها السحري على الأفكار والسلوكيات، وخاصة عندما تكون حصانة المتلقي الثقافية هشة وضعيفة، ولذلك فليس مصادفة أن اليابان وألمانيا، مثلا، هما من اكثر دول العالم شهرة لصناعة الجنس من أفلام ومجلات، غير أن معدلات الجريمة والاغتصاب في اليابان تأتي الأدنى في العالم، في حين أن المسالة تأتي مغايرة عندما يأتي الحديث عن الولايات المتحدة الأمريكية إذ تكثر الجريمة والاغتصاب في تلك الولايات التي تسمح بعرض مجلات الإباحة الجنسية في الأمكنة العامة (13).

وفي مجال المقارنة بالآخر، يمكن لأي مجتمع تعترضه فترة تأزم تنشط فيها أعمال العنف كما حدث في الجزائر-مثلا- أن يتساءل عن دواعي ا لأزمة وجذورها العميقة، وعلاقتها بالتطورات الحاصلة في العالم، وعن مدى تأثير الإعلام الغربي بقوة على خلق ظواهر اجتماعية تكون غريبة عن المجتمع وقيمه الأصيلة.

فإذا عقدنا مقارنة، على سبيل المثال، بين تاريخ الجزائر السياسي الحديث وتاريخ أمريكا نجد "أن الجزائر فقدت أحد رؤسائها اغتيالا وهو المرحوم –محمد بوضياف- بينما الولايات المتحدة الأمريكية عرفت اغتيال أربعة من رؤسائها خلال قرن واحد (1865-1965) وهم: لينكولن، وجار فيلد وماكينلي، وكينيدي" (14). ونفس الشيء يمكن ملاحظته بالنسبة لمصر التي عرفت اغتيال رئيسها "أنور السادات" في إطار أحداث العنف السياسي، وإن كانت معظم الاغتيالات السياسية والاضطرابات الاجتماعية وعدم الاستقرار، تحدث في بلدان العالم الثالث فلا شك أن في ذلك ما يثير الشكوك بعلاقة جهات غربية ضليعة في إشعال الفتن، بتلك الأحداث.

4- النظام الإعلامي العالمي والعنف

إن الحديث عن النظام الإعلامي العالمي السائد حاليا يقتضي العودة إلى الوراء بحثا عن بدايته التي ترجع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، حينما قسم الحلفاء أقطار العالم إلى مناطق نفوذ سياسي واقتصادي، ولم يهملوا –كما قد يتصور- تحديد مناطق النفوذ الإعلامي. ومنذ ذلك الحين وضعت اللبنة الأولى للنظام الإعلامي العالمي الذي تشكل هيكله بمرور الزمن على حساب الضعفاء، مثلما كان الشأن بالنسبة للنظام الاقتصادي بوجهيه: الرأسمالي والاشتراكي.

وقبل الخوض في مجال النظام الإعلامي العالمي نود أن نسوق لمحة وجيزة عن تشكل النظام الاقتصادي العالمي الذي لا يمكن الفصل بينه وبين نظام الاتصال والإعلام نظرا لوثاق الصلة بينهما، ولأن الأنماط والأيديولوجيات الاقتصادية لا يتحقق لها الانتشار المرغوب ما لم تقم على منظومة إعلامية تتوفر على تقنيات ووسائل تؤهلها لأداء الدور المنوط بها.

لقد كان استقرار النقد وتوفير قابلية العمولات للتحويل وضمان حرية التجارة، أو التجارة متعددة الأطراف، من أهم أهداف النظام الاقتصادي الدولي لما بعد الحرب العالمية الثانية وكان الدور الأكبر في وضع أسس هذا النظام يرجع إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، ومن أبرز مؤسسات ذلك النظام الاقتصادي الدولي نجد البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، وكلا المؤسستين أدى دورا في تدعيم وتوطيد معالم اقتصاد السوق الذي أصبح النظام الاقتصادي الوحيد في العالم، إذا ما استثنينا كوبا والصين" (15).

وإذا كانت دول العالم قد فشلت في الاتفاق على قواعد محددة تسمح بتكوين منظمة دولية للتجارة بعد الحرب العالمية الثانية بسبب الاختلاف الواسع بين وجهات النظر المطروحة آنذاك والتي يرد الكثير منها إلى أساليب الإنتاج والاستهلاك والتسويق، وهي أساليب تنطوي على أيديولوجية متعارضة واستراتيجية مختلفة، إذا كان الأمر كذلك "فقد عمدت الدول الصناعية إلى وضع ترتيبات خاصة والاتفاق على مجموعة من المبادئ لضمان حرية التجارة، في ما عرف بالاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (GATT)" (16).

ومعلوم أن دور بلدان العالم الثالث من هذه القضايا الحساسة لم يزد عن موقف المتفرج العاجز عن فعل أي شئ. وهو الموقف ذاته الذي سيتخذه لاحقا بخصوص تشكيل النظام الإعلامي العالمي الذي وضع على مقاس الأقوياء.

وبالنسبة للاختلالات التي ميزت النظام الإعلامي العالمي لما بعد الحرب العالمية الثانية والتي كانت نتائجها لصالح الغرب، فقد بذلت جهود كبيرة من طرف بعض زعماء العالم الثالث لتغيير الواقع المجحف في حقهم وارتفعت أصوات مطالبة بضرورة صياغة نظام إعلامي عالمي جديد، يضع حدا للتدفق الإعلامي السائر باتجاه واحد، أي من الشمال إلى الجنوب نتيجة الاحتكار الغربي للأخبار، وكذلك المعلومات التي اعتبرت أساس التنمية الشاملة للدول الضعيفة، ويعطى الحق للشعوب في تبادل المعلومات بصفة عادلة، ودون احتكار أو هيمنة من شأنها زيادة شساعة الهوة بين عالم الأغنياء وعالم الفقراء. وقد كان للرئيس الجزائري -هواري بومدين- دور معتبر، في مناهضة احتكار الإعلام من قبل الغرب، ما جعله يطالب بضرورة صياغة نظام إعلامي عالمي جديد.

ونتيجة لكل ذلك "كان المؤتمر الرابع لرؤساء دول وحكومات البلاد غير منحازة، الذي عقد في الجزائر عام 1973 هو أول اجتماع أثارت فيه هذه الدول المشكلة بصورة محددة وعبرت بقوة عن اهتمامها المشترك بالمعلومات... وبعد ثلاث سنوات عقدت في تونس ندوة خاصة بوسائل الاتصال فمهدت السبيل لأول مؤتمر لوزراء الإعلام في البلاد غير المنحازة، حيث أقر مشروع إعلان صدق عليه مؤتمر للدول غير المنحازة، الذي عقد بعد أسبوعين في كولومبو، يؤكد أن النظام العالمي الجديد للاتصال لا يقل في أهميته عن النظام الاقتصادي الجديد" (17).

5- مظاهر العنف في النظام الإعلامي العالمي

ذكرنا آنفا أن النظام الإعلامي العالمي أدى دورا فعالا في إحداث تحولات عميقة في عالم الاقتصاد والسياسة والثقافة لصالح الدول الصناعة، وبقدر ما ساهم في ترويج المنتجات الغربية وعمل على تطورها، وزيادة نسب الاستهلاك المطرد لها، أدى نفس النظام -من جانب آخر- دورا لا يمكن وصفه سوى بالسلبي تجاه العالم الثالث، حيث نلاحظ أن "النظام الإعلامي الحالي يرتكز على إنتاج وتوزيع ونشر الأخبار والمعلومات والمشاهد عن حروب عالم الفقراء،وتضخيم خلافاتهم ومعاركهم التي يخوضونها بتكنولوجية العالم المتطور ليبني قناعة عالمية بأن من واجب الدول العظمى أن تتدخل لفرض السلام ولوقف المجازر، وأن تسعى لنشر نموذجها في العيش ولتعميم قيمها المقدسة كحقوق الإنسان، ولخياراته الديموقراطية التي يريد لها أن تكون مطبقة في كافة أنحاء العالم بالصورة التي يرتضيها" (18).

وهكذا يبدو النظام الإعلامي العالمي ذا وجهين: فهو يعمل من جهة على توسيع النفوذ الغربي وتدعيم مكانة أمريكا الريادية من خلال آخر ما توصلت إليه تكنولوجيا الإعلام والاتصال وما أفرزته ثورة المعلوماتية، فيما يقوم -من جهة ثانية- بدور مناقض تماما تجاه العالم الثالث. وباعتماد تكنولوجية النظام الإعلامي العالمي المتطورة تتخذ مشاهد الآلام والدماء وسائل وأدوات تبني منها العولمة عالم العنف إعلاميا لتظهر مبادراتها على أنها الإنسانية.

وهكذا نجد وسائل الاتصال والإعلام المحتكرة من طرف أقطاب القوى المادية، قد تحولت هي ذاتها إلى قوة رهيبة غير مادية في يد تلك القوى تستعمل لإرهاب الضعفاء وقمعهم وخنق أصواتهم تحت غطاء العولمة ... وإذن، أليست العولمة من هذا المنظور هي العنف ذاته ؟ ثم أليس الإعلام هو صاحب الفضل في ترويج المنتجات الصناعية والتكنولوجية، وأساليب وأنماط الاستهلاك التي يدفع بها الغرب نحو التوحد والتماثل في مختلف المجتمعات؟

نعم .يقول أحد الدارسين العرب "العولمة هي العنف نفسه الممارس بالواسطة، المستهدف بالعقل والذكاء.. إنها العنف النظيف الذي يمارس بالنظارات والعدسات، وتأتي صوره لتوحي بأن الضحايا هم المعتدون، على الاقتصاد والسلام العالميين" (19).

وفي ظل اليد الحديدية التي تضرب بها أمريكا كيفما تشاء، ووقتما تشاء، وحتى إن لم تكن هي أداة الضرب، فلا شئ يمنعها من دعم وتزكية المعتدين، في هذا الوقت بالذات تتسع مساحة العنف في العالم وتظهر بطولات أمريكا على صفحات الجرائد، وشاشات التلفزيون كممثل يجيد دور الجلاد على خشبة المسرح... ولنا في الحصار الاقتصادي المضروب على كل من العراق وليبيا خير مثال على ذلك كما لنا في ما يحدث في الأراضي الفلسطينية من إرهاب وقمع على أيدي الصهاينة ضد الفلسطينيين الصورة المجسمة لإرهاب الدولة العظمى، والأكثر من ذلك كله هو الصورة المقلوبة التي تنقل بها وسائل الإعلام الغربية الأحداث، حيث تظهر الفلسطينيين على أنهم الممارسون للعنف، وأن اليهود هم الضحية. وقد استطاعت بالفعل أن تؤثر إلى حد كبير على الرأي العام العالمي لكسب تعاطفه. ووسيلتها في ذلك هي الإعلام، والقدرة الفائقة

على استخدامه بالشكل الذي يحقق التأثير المرغوب، وتوجيهه الوجهة المقصودة، وهذه هي حال منظومة الإعلام الإعلامي التي نجد زمام أمورها بيد أربع وكالات أنباء غربية (اثنتان أمريكيتان وواحدة بريطانية والرابعة فرنسية) فهذه الوكالات تتحكم في الأخبار والمعلومات في العالم كيفما تشاء، وتعطيها الصبغة التي تريد وتنشر وتحجب منها ما يحلو لها، وتشوه وتحرف كيفما تشاء، وهي تسيطر على 80% من حجم التدفق الإعلامي العالمي (20).

واعتبارا لهذا الوضع تتأكد خطورة المعركة الإعلامية التي تخوضها - انطلاقا من الفضاء - وبصورة غير متكافئة، الدول الغربية المتطورة ضد الدول الضعيفة ذات الإمكانات المحدودة التي تجعلها في وضع يبعث على الرضوخ والاستسلام للأمر الواقع من جهة، وفيما بين الدول الغربية ذاتها حيث ظهرت بوادر التخوف من سيطرت النموذج الأمريكي وغزوه المجتمعات الغربية "مثل فرنسا التي أبدت خشيتها من تعرض الأمن الثقافي الفرنسي لخطر الغزو الأمريكي ،من جهة أخرى... وفي كثير من الحقائق العلمية يكتشف المرء أن صيغ الانحراف والعنف في سلوك الأبناء ليست نتاجا تنمويا واجتماعيا فقط، بقدر ما هي أيضا نتاج التعامل المستمر مع محطات البث الفضائي الذي أصبح يغطي جميع أطراف الكرة الأرضية" (21) وكذلك شبكة الإنترنت والآلات الذكية وبرمجيات المعلومات الموزعة... وهذا العامل لم يأخذ حظه من الدراسة والبحث من طرف علماء النفس والاجتماع بصفة خاصة في المجتمعات العربية الإسلامية التي عجزت عن تقديم تفسير موضوعي، أو قريب من الحقيقة بشأن تنامي ظاهرة العنف في العديد منها، سيما خلال الربع الأخير من القرن الماضي. والسبب الرئيس في نظرنا يعود إلى إغفال دور تأثير استهلاك المنتجات الثقافية، والحاملة للثقافة الغربية على شعوب هذه المجتمعات.

ومعلوم أن الاهتمام تحول في نهاية القرن الماضي إلى محاولة فهم قوة تأثير وسائل الإعلام اعتبارا للطابع المؤسساتي الذي أصبح يميزها، ولأهداف القائمين عليها، حيث ظهرت محاولات جادة لتجاوز فهم التأثير المباشر لوسائل الإعلام، إلى إجراء تحليلات معمقة وشاملة لمضامين وسائل الأعلام، ونوعية تلك المضامين، وما تحمله من قيم وأفكار وتصورات وكذلك طبيعة العلاقة بين البناء الاجتماعي ووسائل الاتصال وجماهيره، وعمليات التأثير المتبادل بين وسائل الإعلام والمؤسسات (22).

فعندما يتحول الاهتمام في البلاد العربية والإسلامية إلى هذا المجال عن طريق الدراسات العلمية يتدعم أكثر فأكثر فهم عوامل العنف، وتتضح مسؤولية النظام الإعلامي العالمي عن النظام الاقتصادي الذي جعل الجوع من نصيب دول الشمال، والقهر والعنف المسلطين بواسطة تكنولوجية الإعلام "قدر" ذات الدول أيضا.

وأعتقد أن أهم سبيل لتجاوز هذه الوضعية يتمثل في انتهاج استراتيجية تقوم على أساس التحصين الثقافي بالدرجة الأولى، وذلك بترسيخ القيم الثقافية والحضارية عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية التي تتكفل بهما مؤسسات المجتمع المحلي، وخوض معركة الإنتاج الثقافي الوطني والحضاري من أجل توفير البديل المناسب للأجيال الناشئة، وما لم يقدم البديل ويواجه التحدي بالتحدي، سيما في ميدان الإعلام

والاتصال وبمختلف الوسائل الممكنة، فإن هيمنة الإعلام الغربي ستظل ساعية إلى مزيد من السيطرة والاضطهاد والتحكم في مصائر الشعوب، وأي عنف وإرهاب هو أبشع من العنف بالصورة والصوت وكل المؤثرات التقنية الأخرى، وعلى الهواء مباشرة في أغلب الأحيان؟

الهوامش

1- السيد أحمد مصطفى عمر – المستقبل العربي –العدد 256- جويلية 2000- ص ص 72-.73
2- المستقبل العربي –العدد 9-1998 – ص 63.
3- المرجع السابق – ص 9.
4- أحمد عبد الرحمن أحمد-مجلة العلوم الاجتماعية – 1998 – ص 65.
5- المرجع السابق – ص52.
6- Mattelart Arman, Encyclopédie C.D. Rom. Universalis 4.0.n voir mondialisation et culture (Américanisation).
7- نبيل رمزي – علم اجتماع المعرفة – أيديولوجية الإكراه الديني والإرهاب السياسي – دون سنة ص – 74.
8 - نبيل رمزي - المرجع السابق – ص 74.
9- Michaud Yves- Encyclopédie C.D .ROM Universalis, voir : Violence.
10- نبيل رمزي – مرجع سابق – ص 75.
11- آدمون غريب – الإعلام الأمريكي والعرب – الستقبل العربي – العدد 260 – أكتوبر 2000 – ص. 75.
12- السيد أحمد مصطفى عمر –مرجع سابق – ص –83.
13- المرجع السابق –ص –154.
14- المستقبل العربي – مرجع سابق – ص –75.
15- حازم الببلاوي – النظام الاقتصادي المعاصر من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة – عالم المعرفة- العدد257 –مايو2000 –ص34 .
16- المرجع السابق –ص60.
17- شون ماكبرايد وآخرون- أصوات متعددة وعالم واحد – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1981-ص99.
18- الفكر العربي –العدد 63 –1998- ص3.
19- المرجع السابق- ص 3.
20- المرجع السابق ص ص 152-153.
21- المرجع السابق ص 153.
22- مجلة شؤون اجتماعية- جمعية الاجتماعيين (سوريا) العدد 57-1998- ص13. □